

أسطورة القاتل المأجور على القمة

- لا وَطَنَ لِلْمُسْنِينِ أَمْوِجاً -



الكثير من الجرائم التي تجري اليوم في كثير من بلدان العالم، ليست إلا محاكاة لعالم الجريمة في هوليوود، يوم 25 شباط 2008 احتفلت هوليوود بمناسبة مرور 80 عاماً على انطلاق مهرجان أكاديمية العلوم والفنون السينمائية لتوزيع جوائز الأوسكار، ولأنّ الديمقراطية تُقاس باللون والجنس، لم يفوت مقدم حفل الأوسكار جون ستيفارت فرصة التنويه بديمقراطية الولايات المتحدة، بالرّثخين لرئاسته: امرأة ورجل أسود يدعى باراك (هسين) أوباما.

◆ أفق سبيريذ

الفرصة، منذ كان صغيراً، في البداية يقتل من أجل المال، ثم يستمتع بالقتل، فيقتل من أجل المتعة فقط، واليوم هؤلاء المرتزقة الذين يقاتلون من أجل المال فقط، في كل مكان. وليست المشكلة في وجودهم ولكن الكارثة تكمن في أن الناس يحبونهم، ويؤسرونهم، فأى شخص تواجهه أية مشكلة، مع الشرطة أو أية جهة أخرى، يكفي أن يصرّح بأنه كان في فيتنام، والجميع كانوا في فيتنام، ولولا أن الفيلم تجري أحداثه عام 1980، استدلالاً من شاهد قبر والدة الممثلة كيلى ماكدونالد التي تقوم بدور كارلا، لاستبدلوا فيتنام بالعراق كما في الأفلام التي تجري أحداثها بعد 2003. ورغم أن أحداً لا يسأل: ماذا كان يفعل في العراق؟ يجب هو من ذاته، كما فعل جون ترافولتا في بداية فلم السهم المكسور، حين يسأله زميله هل قتلت أحداً وهما يطيران في طائرة الشبح، ليجيبه: "قتلت الكثير من الأبرياء في العراق، وألقيت معظم حمولتي من القنابل على المدنيين الأبرياء هناك".

الممثل خافيير بارديم الذي قام بدور السوبر قاتل مأجور أنطون شوغر، حاول المخرج أن يمنحه سمات مخيفة، من صمت وعينان مرعبة بمقدار ما تحمله من ثقة بالنفس، وتسريحة شعر مجنونة، والموت يمشي جنباً إلى جنب مع شوغر أينما يذهب، ما لم تقرر العملة المعدنية خلاف ذلك، مقابل شريف البلدة الممثل تومي لي جونز الذي قام بدور توم اد بيل، رمز العدالة والقانون والنظام، والذي وإن ظهر مهتماً بمصير موس الذي تلاحقه عصابة المخدرات والقاتل المأجور، لكن رغبته بتفادي المخاطر والمصير الذي لاقاه والده، قتلاً، ورغم أنه قد اجتاز عمر والده الذي مات فيه بعشرين سنة، لكنه لا زال متشبهاً

حقق الفلم نجاحاً ساحقاً، ورُشِّحَ لثمانية جوائز، فاز بأربعٍ منها. بميزانية 25 مليون \$، ومدة العرض: 122 دقيقة. حصل الفلم على الجائزة الكبرى (أفضل فلم) وجائزة أفضل إخراج وأفضل سيناريو مقتبس، وأفضل ممثل مساعد للممثل الإسباني خافيير بارديم. واستند المخرج على خيال المتلقي في تكثيف المشاهد، فمشهد لا يدوم أكثر من 49 ثانية تبدأ في الدقيقة 34 حيث موس وزوجته يهربان، في حافلة، ويبدأ المشهد الآخر مع المفتش ومعاونه يصلان إلى مقطورة موس بعد أن غادرها القاتل بثوانٍ، والدليل أن قنينة الحليب التي كان يشرب منها لا زالت ترشح، ورغم ذلك لم يحاولوا سؤال صاحبة النزل التي طردته بعنجهية ومع ذلك لم يقتلها ولم يُخرج عملته المعدنية، ولكنها رآته وكلمته واعتقدت بغرابة أطواره، ولم يحاول المفتش للحاق بالمجرم ولا الاتصال بنقاط تفتيش أو أي شيء من هذا القبيل، قابلاً كل شيء بهدوء تام، ما دامت الجبهة الغربية تُنعم بالهدوء ليحترق الشرق حتى يصير رماداً.

وهذا تنبيه بأن القاتل المأجور موجودٌ معنا، يُساطرنا الهواء الذي نتنفسه، ونحن من أعطاه





بالحياة.

السرد يجري بموازاة ثلاث شخصيات (القاتل الماجور + العسكري المتقاعد + شريف البلدة) ويبدأ الفلم بمشهد القاتل الماجور مُقْبِداً يقوده شرطي إلى مركز شرطة خالٍ من أي أحد سواهما، وبينما يتصل ليلبغ عن إلقاء القبض على رجل يحمل معه مظفاة حريق، وبينما الشرطي يتكلم يحول القاتل يديه المقيدتين من الخلف إلى الأمام ثم يخنق الشرطي، وهذا هو الخطأ الأول، لماذا تحتاج عصابة عريقة في الإجرام لاستئجار قاتل من خارج العصابة؟ إذا كان هذا القاتل سيئ السمعة إلى هذا الحد، فكيف لرئيس العصابة أن يثق بأمانته في إعادة حقيبة مليئة بالدولارات؟ والفكرة مستهلكة جداً، رجل يسرق مال العصابة، والعصابة تطارده باستئجار قاتل ماجور.

الخطأ الثاني فكيف لمركز شرطة أن يكون خالياً، وعندما جاء الشرطي ومعه المجرم إلى مركز شرطة أم بقال خاص قام بفتح دكانه وعرض المجرم؟

والخطأ الثالث في الدقيقة 55، والذي لجسامته، يستحق أن يحجب جائزة أفضل فلم، القاتل فشل في قتل لويلن موس بعد أن صار قاب قوسين، يبدأ المشهد بموس وهو يبحث عن غرفة في فندق رخيص أجرة الغرفة 26 دولار فقط، ويعطي لعامل الاستعلامات رشوة، ليخبره أن باي نزيل جديد، مهما كان، ويحاول النوم، فتساوره الشكوك حول كيفية الاستدلال عليه، فيبدأ البحث في الحقيبة عن جهاز التعقب فيجده بين رزم الدولارات، ينبض بصوت وضوء متقطع، دليل اقتراب الجهاز الآخر، فيتهيا، والمصيبة في التهيو، يجلس أمام الباب الذي لا يبعد عنه سوى 3-4 أرباع خطوات، مقابل للباب، يقترب القاتل، يرى أثر الحذاء أمام الباب ورغم ذلك لا يطلق النار، ولا ينحرف عن مواجهة الباب ولو قليلاً، يذهب القاتل فيطفيئ النور، ويعود فيقترب، وكعادته يطلق النار على زلاجة الباب بدلاً من قفل

الباب، فيصأب موس في بطنه، ولكنه يطلق النار أيضاً فيصيب القاتل في فخذه الأيسر، وتحدث مطاردة بينهما هي ذروة التشويق والإثارة بين جميع مشاهد الفلم التي تجري بإيقاع صامت وهادئ وجو من الانتظار. نحن نعرف أن موس محارب قديم لسنتين في فيتنام، وربما كان برتبة عقيد كما نوه المفتش، فكيف جلس مقابل الباب، لو انحرف قليلاً، لم أر فلماً واحداً فيه مشهد بهذا الغباء، حتى الكوميدي منها، ينحرف البطل وينتظر القاتل، قرب الباب وليس أمام الباب.

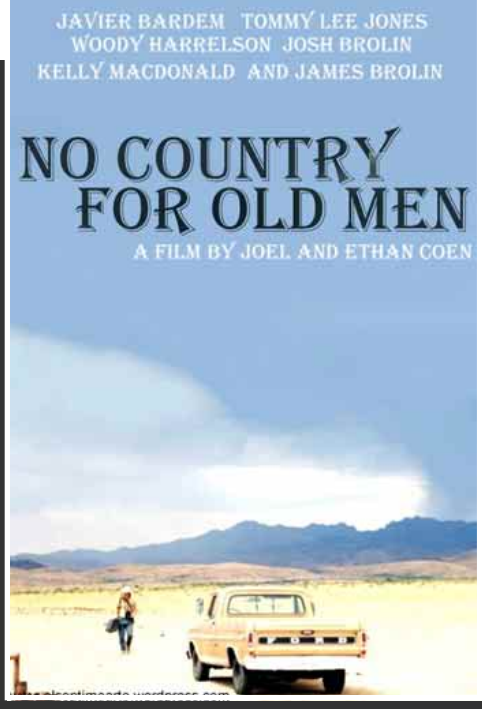
إن مُحَكَمِي جائزة هوليوود تعاطفوا كثيراً مع الممثل الإسباني خافيير بارديم بدور القاتل الماجور الذي لا يُقهر، ولا يخطأ، ويتعقب هدفه بتقنية ميتافيزيقية خاصة بعد غياب جهاز التعقب، وتعاطفهم جاء من تعاطف الشعب الأمريكي مع القاتل الذي لا يرحم، الذي يقتل من أجل القتل فقط، يمر بغراب فيطلق عليه النار، يقتل كل من يراه، وأحياناً يمنحهم فرصة لأن ينقذوا حياتهم بتخمين وجه العملة المعدنية، فإذا حرزوا تركهم،

الأخرى، المهم أن القاتل حين لم يُسَعَفهُ المنطق على إجابة سؤال كارلا (ليس لديك سبب لتؤذيني) لجا إلى الميتافيزيقيا والأقدار التي جلبت العملة بالطريقة ذاتها التي جلبته إليها، كالسيد بوش في تبريره للدمار الذي ألحقه بالعراق (الرب أمرني بغزو العراق!!!).

يبدأ مشهد آخر والقاتل يخرج من بيتها يفحص حذاءه خوفاً عليه من الاتساع بدماء الضحية، وحين يخرج تصدمه سيارة لأنه غفل بمراقبة صبيين على دراجيتين هوائيتين لكنه لا يموت، يخرج عظم ساعده، يترنح إلى الخارج، يقترب منه الصبيان، يقول لأحدهم بكم تعطيني قميصك، ويناوله ورقة مالية، ويغادر قائلاً لهما أنتما لم ترياني أنا غادرت المكان منذ زمن. ومسألة شراء ملابس المارة تتكرر، حيث لم أصيب موس بإطلاقه في بطنه يشتري سترة أحد ثلاثة شبان، بخمسمائة دولار، يمرون في الشارع في تلك الساعة المتأخرة من الليل بحيث خلا الشارع إلا منهم، قريباً من مخفر حدود المكسيك، وهو ينزف ويترنح، ثم يشتري زجاجة بيرة منهم أيضاً.

أجاد الروائي الأمريكي كورماك مكارثي استخدام وتوظيف الهروب لتأسيس بنية الرواية كلها، فلاشخصيات الرئيسية جميعها هاربة ومطاردة، فالقاتل هارب من وجه العدالة، والعصابة استاجرت قاتلاً آخر يعرفه ليتعقبه ويقتله، والمفتش هارب من مصير والده الذي كان شريفاً وقُتِل، ولولين يهرب من عصابة المخدرات التي سرقَ مالها.

والرواية تركز على فكرة قديمة واستهلكتها هوليوود كثيراً، عابر سبيل يعثر على أموال المخدرات، أو يسرقها، وتبدأ العصابة بمطاردته، أو تقتل أطفاله وزوجته لينتقم هو، أو يستمتع بالأموال مع حسن الفكاها والمفارات الكوميديا، جيم كاري في غبي وأغبي وعادل إمام في بخيت وعديلة وغيرها الكثير. لكن هنا ينتصر القاتل



وإذا فشلوا يقتلهم فوراً، وفي آخر جريمة يرتكبها، بعد أن تدفن كارلا جون موس والدتها المريضة بالسرطان، تعود إلى بيتها لتجد القاتل في انتظارها، تعرفه فوراً، فتبادره بصوت وجلّ وخائف (- المال ليس معي، القليل الذي كان معي نغد، ولا زال هناك الكثير من الفواتير، دفنت أُمي اليوم ولم أَدفع أيضاً. - لست قلقاً بشأن المال. تطلب منه أن تجلس: - ليس لديك سبب لتؤذيني. - كان لدى زوجك فرصة كي ينقذك لكنه حاول إنقاذ نفسه. - لا داعي أن تفعل هذا. - الناس دائماً تقول نفس الكلام. أفضل ما يمكنني أن أفعله، يخرج عملة معدنية من جيبه، يطيرها في الهواء ويمسكها مخفياً إياها: احزري. ترفض وتقول له: - قطعة النقود لا تقرر أنت الذي تقرر. - وصلت أنا هنا بنفس الطريقة التي وصلت بها قطعة النقود).

لا يظهر القاتل وهو يقتل موس أو زوجته، لكن موس تظهر جثته ملقاة، وزوجته يتركها المخرج لتفعيل مخيلة المشاهد، كالكثير من المشاهد

كهذا، فحتى لو أنه لم يفكر بأن العصابة قد تقلق على أموالها وتبدأ بمراقبة مكان الحادث، فكان يجب أن يعلم أن رجلاً مصاباً بجرح خطير ينزف منذ الصباح سيموت حتماً عند منتصف الليل، وحتى إذا لم يمت فبماذا تنفعه جرعة ماء؟ وإذا كان المحارب القديم لويلن موس بهذه الإنسانية فكان عليه أن يبلغ من مجهول سيارة إسعاف لتذهب إلى إنقاذه بدلاً من أن يذهب هو بكوب مائه السحري، وكأنه يحمل إليه إكسير الحياة!!! وهذا الخطأ الرابع.

أنطوان مثل قتلاه، ضحية للعملة المعدنية، ضحية لفكرة القدية الخبيثة، الذين يظنون أنهم مسيرون، وأي فعل أو عمل دنيء يقومون به، يقولون القدر هكذا مكتوب، وبوش الابن لا يختلف كثيراً عن هذا القاتل الماجور، وهذه الفكرة العنصرية مدمرة، وقد صاغها إيليا أبو ماضي شعراً، يقول في بداية طلاسمة (جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ/ ولقد أبصرتُ قُدامي طريقاً فمشيتُ/ وسابقي ماشياً إن شئتُ هذا أم أبيتُ/ كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟ لست أدري! / أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود/ هل أنا حرُّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود/ هل أنا قائدٌ نفسي في حياتي أم مقود/ أتمنى أنني ادري ولكن/ لست أدري!). وهذه الطلاسمة رد عليها البروفيسور ربيع سعيد عبدالحليم بقصيدته التي أسماها فك الطلاسمة (جئتُ دنياي وأدري، عن يقين كيف جئتُ/ جئتُ دنياي لأمرٍ من هدى الآي جلوتُ/ ولقد أبصرتُ قُدامي دليلاً فاهتديتُ/ ليت شعري كيف ضلَّ القومُ عنه!/ ليت شعري! / ليس سرّاً ذا خفاءٍ أمرٌ ذيك الوجود/ كل ما في الكون إبداعٌ إلى الله يقود/ كائنات البر والبحر على الخلق شهود/ ليت شعري كيف ضلَّ القوم رشداً!/ ليت شعري!).

الخطا الخامس 88 دقيقة، موس يريد الدخول إلى الولايات المتحدة، من المكسيك، وليس معه أي مستمسك، الشرطي يمنع مروره، فيقول له: كنت

الماجور، ويفشل المحارب القديم، ويفشل المحقق العتيد، وتفشل مديرية مكافحة المخدرات التي لم يظهر إلا اسمها، وهكذا فشل الجميع إلا المخرج الذي يعرف ماذا يريد الجمهور، وقبل الجمهور يعرف ماذا يريد محكمو جائزة هوليوود، الكل يريد انتصار الشر، في غياب تام لعدالة السماء التي اعترفت بها الممثلة شارون ستون وقالت أن فيضانات الصين هي غضب السماء على رد الصين الوحشي ضد مظاهرات شعب التبت الأعرل، ونوهت بالمليون عراقي الذين قتلوا منذ بدء الحرب. فحرمتها جميع المهرجانات من أية دعوة.

بعد المشهد الأول: هروب القاتل الماجور، يظهر لويلن موس في رحلة صيد في صحراء قرب المكسيك، يخطف إطلاق النار على مجموعة غزلان، يمضي ليرى مجموعة جثث ملقاة على الأرض، يبدو من وجوه القتلى أنها لعصابات المخدرات المكسيكية، يجد أحدهم حياً، يطلب منه ماء، يقول له لا ماء معي، يرى جثة بعيدة تحت ظل شجرة، يذهب إلى هناك ليجد عندهم حقيبة مليئة بالدولارات، ويرى صناديق من المخدرات، وبدلاً من أن يبلغ ويأخذ جائزته دون عناء أو التعرض لمخاطر مطاردة محسومة، يأخذ المال ويترك المخدرات، ويعود إلى البيت، وفي الليل يؤنبه ضميره، لأنه ترك الضمان، فيعود إليه، وهذا الخطا الآخر الذي لا يتناسب مع حجم الذكاء والحزم والقوة والشجاعة التي أضفاها المخرج على بطل حرب فيتنام، فكيف له أن يتنبا أن العصابات لن تعرف بعد ساعات قليلة ماذا حدث لرجالها؟ يترك سيارته بعيداً عن الموقع، ويذهب إلى الرجل ليجد أن رصاصة كبيرة قد أطلقت على رأسه من زجاج النافذة المهشم، ويرى أضواء سيارة تقترب من سيارته البعيدة، فيهرب ويستمر بالهروب إلى أن يُقتل، كيف لرجل حَبَر الحياة ونجا من أهوال فيتنام ومن السوبر قاتل ماجور، ومن مطاردة سيارة عصابة المخدرات أن يقوم بتصرفٍ أحقق

عن هذا العالم المتغير، في 102 يزور شرطياً متقاعدًا، يخبره بأنه سيستقيل، فيقول له "ما حصلَ معك ليس شيئاً جديداً، هذه البلدة صعبة على الناس، لا يمكنك أن تُوقَفَ ما هو قادم، الأمر لا يتوقف عليك". هذا اليأس في مواجهة الشر هو الذي نال جائزة الأوسكار، لأن هذا ما يريده الساسة ويبرر سادة هوليدود "هذا ما يريده الجمهور". في الدقيقة 68 المفتش والمعاون في مركز الشرطة وكأثمهم للتو اكتشفوا جثث الثلاثة الذين قتلهم شوغر من عصابة المكسيكيين في الموتيل حيث كان معهم جهاز تعقب أيضاً، فيحدثه المفتش عن جنون القتل الذي ينتاب البلاد بهدوء (في كاليفورنيا يؤجرون الرغف لعجائز ثم يقتلونهم ويدفونهم في الحديقة، ويصرفون شيكاتهم من الضمان الاجتماعي، لكنهم يعذبونهم في البداية، لا أدري لماذا؟ يقرأ في الجريدة "رجلٌ يهرب من بيته عارياً وهو يرتدي طوق كلب" يعلق: فقط هذا ما يتطلبه من يريد إثارة الانتباه.

القاتل يتعقب، موس يهرب، المفتش يفكر ويتفلسف، ويلاحق الأحداث باستنتاجات يسبق بها معاونه، لكن القاتل يسبقه بأشواط طويلة، ومشاهد حياة المفتش قد تأخرت إلى الدقيقة 28، وفي الدقيقة 41 يقرأ له معاون تقرير الطب العدلي للرجل المقتول على الطريق، رصاصة في رأسه، دخلت ولم تخرج، وغير موجودة أيضاً في رأسه، وهو شيء غير منطقي للشريف لأنه لم يرَ مطفأة الحريق التي استخدمها شوغر في القتل، ويفتحها كأنها يفتح غاز الطبخ، ويطلق منها النار وكأنه يكبس أوراقاً.

بعد ساعة و 54 دقيقة، ينتهي الفلم بمشهد المفتش بيل، وهو يروي لزوجته حلمين رأى والده فيهما، الأول كان على موعد معه في السوق ليعطيه مالا، والثاني والده يحمل شعلة بيده في طريق جبلي يمر به دون أن يكلمه، ويذهب كي يوقد ناراً.

في فيتنام كتيبة المشاة 12 من 7 آب 1966 ولغاية 2 تموز 1968، فيسمح له، ويذهب لشراء ملابس وهو يرتدي زي مرضى المستشفى، أنا لن أقول كيف دخل بهذه السهولة، ولكني أقول كيف عولج من إصابة بطلق ناري في بطنه دون استدعاء الشرطة؟ ونحن نعلم بأنه لا يوجد مستشفى في العالم تعالج جريحاً قبل أن يحرق له مركز شرطة المستشفى محضراً بالحادث.

الخطا السادس في الدقيقة 92، كارلا وأمها المصابة بالسرطان تذهبان للقاء موس قرب مطار الباسو، والعصابة تلاحقهما، بعد اتصال هاتفي من موس، ولكن موس قبل ذلك بقليل تلقى وعداً من القاتل المحترف شوغر، بأنه ذاهب ليقتل كارلا، و كارلا قبل ذلك اتصلت بالمفتش لتشي به، ويأتي موس خائفاً، تدعوه امرأة لتناول بيرة وهي تجلس أمام بركة سباحة، فيلبي دعوتها، وينسى أن زوجته تنتظره، القاتل شوغر في هذه الأثناء، يقف أمام سيارته وكأنها عاطلة، فنتوقف سيارة تحمل صناديق دجاج، فيسأله عن أقرب مطار، ثم يقول له أبعد صناديق الدجاج، فيتعجب صاحب السيارة من هذا الطلب الغريب، يبدأ مشهد آخر مع القاتل وهو يغسل صندوق سيارة الحمل من ريش الدجاج، وطريقة قتله متروكة لخيال المتلقي. كيف للسذاجة والحدق أن يجتمعا في موس؟ رجل يعلم أن زوجته مراقبة، والقاتل ذهب إليها ليقتلها في مساومة ساذجة أيضاً، فلماذا لم يعمل موس على المماطلة واستدراج القاتل إلى موعد ليسلمه النقود ثم يقتله، بدلاً من إثارة غضبه، وتوجيهه إلى زوجته، ثم يذهب هو أيضاً إلى المصيدة، والخطا السادس رجلٌ يحمل معه مليوني دولار وبندقية طويلة يتجول في الشوارع ويعبر نقاط الحدود بين المكسيك وأمريكا دون رادع أو إزعاج حتى، ويستوقفه شباب في ساعة متأخرة ويرون حالته ونزفه، ويرضون بخمسائة دولار ولا يطمعون في قتله.

والمفتش بيل لا يفتأ عن طرح أسئلة فلسفية،